حربان فاصلان في تاريخ إفريقيا
حرب إيسلي وحرب تطوان

عبدالعزيز بنعبدالله

عضو أكاديمية المملكة المغربية

بعد صراع عارم بين الأمير عبد القادر الجزائري والجيش الفرنسي تمكن الوالي العام للجزائر " بوجو" Bugeaud (عام 1275 هـ / 1859 م) من السطو على مجموع الإيالة الجزائرية فانحاش الأمير الجزائري لاجئا إلى التراب المغربي بوجدة والريف و بعد أقل من سنة (1859-1860) انبرت إسبانيا في تواطؤ صارخ مع فرنسا لإثارة حرب تطوان التي أطلقت عليها حكومة مدريد اسم (حرب إفريقيا) فكان الحربان انتفاضة صليبية اعتبرت فرنسا أنها بداية ("العصور الحديثة" Les Temps Modernes) بالقارة السمراء.

بدأت المعركة بين المغرب و فرنسا بمحاولة "بوجو" العبث في الحدود مطالبا من المملكة طرد الأمير الجزائري فرفض السلطان ذلك وانبرت كتيبة بإمرة ابن عم السلطان المولى المامون فأجلت الفرنسيين الذين ارتدوا نحو (مغنية) حيث استنفر السلطان المولى عبد الرحمن جيشا بقيادة ولده الأمير محمد فتقدم "بوجو" واصطدم به قرب (وادي إيسلي) صباح (منتصف شعبان عام 1260 هـ (13 غشت 1844) فالتحم الفريقان وكان الأمير القائد قد غير سحنته في المعمعة فحسب الجند أنه هلك فهاج الناس وماجوا فاستشعر الأمير بالهول بعد أن تشتت الجيش بسبب سوء القيادة و رداءة التنظيم و قلة الضباط و الجنود المحترفين و أنانية الانتهازيين فتراجع إلى تازة عامدا جمع شتاته و لكنه اضطر إلى إمضاء(معاهدة طنجة) في نفس السنة نفذت بمقتضى (معاهدة لالة مغنية) فالتزم السلطان بإجلاء الأمير عبدالقادر ومرت ثلاث عشرة سنة في دعم الثغور وتجديد العدة والعتاد فتوفي السلطان المولى عبدالرحمن بمكناسة في 29 محرم 1276 هـ) بعد أن عمل بعزم و حكمة لإنقاذ الوطن المهدد من كوارث خطيرة .

وكانت أولى نتائج هذه الانهزامية ظهور أول بادرة لتحرير التجارة الخارجية المغربية سبقت بادرة العولمة في عصرنا فشعرت الأمة بالخطر الذي أصبح يهدد الكيان الاقتصادي القومي بسبب انعدام أية مراقبة ولا حماية للمقومات الوطنية. وكان الأسبان قد بدأوا يبذرون نواة لتوسيع شبكة نفوذهم في الشمال فاحتلوا (الجزر الجعفرية) و أقاموا الأبنية في الحدود بين سبتة و الأنجرة بدل الأكواخ الخشبية فهدمها الجمهور الذي واصل غاراته على (سبتة) فما كان من المولى محمد الرابع إلا إشهار الحرب على أسبانيا رافضا التنازل للأسبان فاستنفر السلطان الثغور للجهاد و أرسل طلائع كتائبه إلى أرباض تطوان قبالة سبتة و انضاف إليهم من أهل (الأنجرة) و القبائل المجاورة و أطراف البلاد . نحو خمسة آلاف واجهت خمسين ألف جندي أسباني تحت قيادة الجنرال أودنيل و بريم و استمر العراك نصف شهر عزز بعدها السلطان هذه القوة بأخيه المولى العباس فصمدت الكتائب المغربية في وجه جيش أسباني عارم قد عزز بأسطول زحف عن طريق الساحل إلى (الفنيدق) فتقهقر المولى العباس في غير ترتيب و لا انضباط إلى (مجاز الحجر) بدون نظام و لا دراية عسكرية و قد أمده السلطان بعتاد قوي و لكن الإمدادات الأسبانية كانت تترى على الأسبان من (سبتة) برا ومن الأسطول بحرا فسحت مجال احتلال (برج مرتيل) ثم الإغارة على تطوان بفرقتين مسلحتين بمدافع و صمد التطوانيون أمام هده الهجمة و عززهم السلطان بكتائب جديدة بإمرة أخيه المولى أحمد و لكن الجيش الأسباني أحدق بها فانجلى العباس عن مؤخرة المدينة

فاستأذنه الناس بالتحصن بالجبل و لكن الانتهازيين و المتنصرة المحميين واصلوا الاضطراب فاضطر أهل تطوان أمام هذا الخلل الصارخ إلى فتح أبواب المدينة في وجه الجنرال الأسباني الذي دخلها (يوم الاثنين 13 رجب 1276 هـ) (5 يبراير 1860) حيث عاث فسادا و أحال المساجد إلى كنائس و رفض السلطان الشروط الأسبانية لإقرار الصلح معززا بمآت المتطوعين الذين هبوا من (بوصفيحة و (عرب الحياينة) لإيقاف زحف الأسبان و الإمعان في تقتيلهم ولكن الخصم ظل يواصل سيره أمام هذه الانتفاضة غير المنظمة مما أدى إلى إبرام معاهدة في (أواخر شعبان عام 1276 هـ) مع فرض شروط منها دفع المغرب عشرين مليون ريال ظل الأسبان محتلين لتطوان مدة سنة أدى السلطان خلالها نصف الغرامة و أقيم مندوبون أسبان في المراسي لاقتضاء الباقي من موارد الديوانة فتم الجلاء عن تطوان في (ثاني ذي القعدة سنة 1278 هـ/ مايه 1862) بعد احتلال استمر أزيد من ستة وعشرين شهرا.

ذلك ما حكاه الجانبان مع تناقض في الرواية فما هي الحقيقية ؟ و ما هو سبب انهيار الجيش المغربي و كيف تم واستمر تواطؤ الاسبان والفرنسيين مما أدى إلى ما نزال نعاني منه إلى اليوم ؟

الواقع أن الحربين كانتا كسابقتهما " معركة وادي المخازن" هجمة صليبية غير مسبوقة في مداها و عواقبها بشهادة المؤرخين من الجانبين وخاصة الأسبان مما حفلت به أناشيد جنودهم وإطلاق أسماء الأساقفة على مراكز بدءا بشوارع تطوان كما صدرت بادرة إشهار الحرب ضد المغرب من البرلمان الأسباني نفسه الذي ابتهل وفاة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام في (خريف1859) فأجمع أعضاؤه على إعلان الحرب بعد أن استثاروا قبائل مغربية كقبيلة (الأنجرة) التي برهنت عن روحها الوطنية في دفاعها عن سبتة وحوزها وقد جند الأسبان عشرات المراسلين الصحفيين ذوي الاختصاص والصيت برز منهم اثنان و هما Pedro Antonio Alarcon (1891-1833)

و Benito Perez Galdos (1920-1843)

فالأول هو صاحب (مذكرات شاهد على حرب إفريقيا) و الثاني أديب مرموق أصدر بإسم (أحداث وطنية) سلسلة من القصص والروايات منها (عيطات تطوان) التي تؤرخ لحرب تطوان و لم يفت هدا الأخير الإشادة بشاهد عياني تطواني هو الشاعر الكبير المفضل أفيلال الذي نحتفظ بالنص الكامل لتقريره في هذا المجال و إن كان ينحي باللائمة في معظم حديثه على الانتهازيين من بعض رجال المنطقة من المحميين الذين يلقب بعضهم بالمتنصرة بينما يشيد بتطوان المسالمة التي لا تنتفض إلا للدفاع عن كرامتها و استقلالها ملقبا إياها بالحمامة قائلا :

تطــوان ما كنــت إلا بين البـــلاد حمامـــة

أو كعــروس تجـــلي من بعد لبـس العمامـة

فقت جمـالا و حسـنـا فـاسـا ومصر و شامه

ولكن (المفضل المفضال) بقدر ما كان رقيقا في حبه لتطوان و مواطنيه من أهلها بقدر ما كان عنيفا شديد الوطأة على من تهاون أو خان في ذبه عن الوطن المهدد.

فما ذا قال؟

في ثاني ربيع الاول 1276 هـ بعث نائب السلطان محمد الخطيب بطنجة كتابا قرئ في المشور على أعيان أهل تطوان للإنذار بعزم الأسبان وحثهم على أخذ العدة من البارود و لكن نصف أهل المدينة ظل بدون عدة ففر البعض إلى الناحية منهم المفضل أفيلال الذي خرج مع أهله إلى (بني صالح) قرب تطوان ليعود بعد ذلك و في تلك الليلة خرج أهل تطوان للقاء العدو حاملين مدفعين اثنين من (قصبة مرتيل) مستغيثين بأهل الجبل فلم يقدم عليهم احد و لكن الأمر اشتد دون استجابة الجبل الذي كانت تطوان قد

منعتهم من الزرع في ذلك العام وهو عام القحط رغم امتلاء الدور بالزرع و توفرها منه على مقدار سبعة مراكب فصدر الأمر من السلطان لاستنفارهم فقدموا إليها و في (خامس عشر ربيع الثاني) اجتمع الأعيان و العلماء و قد داخلهم الرعب فاتفقوا على مواصلة الحرب و عدم المصالحة إلا بعد الهزيمة " وإلا دخلو تحت حكم النصارى " – كما يقول افيلال الذي تنقل مع أهله إلى شفشاون في اليوم التالي ليرجع إلى تطوان بقصد الجهاد وتحريض المومنين على القتال وتدخل آنذاك سيدي عبدالسلام بن ريسون فأمر بإخراج النساء و الضعفاء من البلد إلى جبل بني حزمر و مواصلة القتال من أسوار المدينة ومن داخلها و هنا لاحظ السيد أفيلال أن من كان غرضه الدخول تحت حكم النصارى من المحميين و المتنصرة رفضوا السكنى بالجبل منددين بمن خرج من المدينة بتخريب داره و نهب متاعه و جعلوا الحراس على أبواب المدينة لمنع الناس من الخروج و كان الخليفة العباس أخو السلطان قد قدم بصدد الجهاد و في(21 ربيع الثاني) توافد الأسبان من (سبتة) و نزلوا في (دار البيضة) و هي دار بناها (أحمد الريفي) لما كان مرابطا على سبتة و ظل أهل تطوان في انتظار ورود الإغاثة من السلطان في حين ظل الأسبان يغيرون على العزائب إلى أن وصلوا (يوم الثالث والعشرين) منه إلى (الفنيدق) حيث خرج أهل تطوان بحذافيرهم إلى (دقم الفنيدق) و من بينهم أهل (وادراس) و (بنو يدر) و (بنو حزمر) نزلوا وسط أنجرة بمدشر يدعى (البيوت) على بعد عشرة أميال من (دار البيضة) و انضم إليهم رماة من أنجرة و في حين كان الأسبان يواصلون بناء الأبراج و حفر "الأشبار" وقطع الأشجار ظل المجاهدون من القبائل بين كر و فر إلى يوم (28 ربيع الثاني) حيث شب قتال عنيف بين الفريقين فانهزموا بعد أن ورد على مرسى تطوان "بابور" (باخرة) تعزز بثلاث فراكط كبار قدفت البرج بأربعة آلاف من القنابل المشحونة بالبارود المسحوق والزئبق و هدمت (برج مرتيل) و اهتزت جدرات المدينة من صوت المدافع التي كانت تسقط على أهلها من طول البحر فعاد المجاهدون إلى القتال (يوم رابع جمادى الأولى 1276 هـ) منتقلين من (البيوت) مع من انضم إليهم من أهل (وزان) و (مسارة) و (رهونة) و (بني مصُور) و (جبل الحبيب) إلى دار البيضة بمكان يعرف ب (عين رحمة) فانهزموا و مات منهم اثنان وعشرون و جرح نيف و خمسون و بعد استيناف الصراع يوم ثالث عشرجمادى الأولى) اشتد الحرب فاستشهد سبعة و أربعون من المسلمين و جرح اثنان و سبعون و مات من الأسبان عدد كثير نظرا لكثرة رماة الجبل من المغاربة الذين كانوا يستترون بالأحجار و الأحجار و الأسبان يواجهونهم في صفوف كالبنيان المرصوص يرمون بالمدافع إلى أن وصلوا إلى (الفنيدق) و كان بالبحر مركب للإنجليز ينتظر لمن ستكون الغلبة لينالوا حظهم من الغنيمة و ظلت أعداد المجاهدين المغاربة في تزايد فانضم إليهم (ابن عودة) قائد عرب الغرب ثم شبت (وقعة قرب دار البيضة) ظهرت المزية فيها لأهل زرهون و (في يوم 23 منه) دخل تطوان الخليفة العباس و أمر المحلة (الكتيبة) التي كانت مرابطة في ثغر تطوان بالتوجه لسبتة و صحبهم رماة من تطوان مؤكدا شيخ سيدي عبد السلام بن ريسون مرافقته وقد انزعج العباس مما بلغه عن المحلة المرابطة في (البيوت) فازداد الرعب عند وصول عشرة مراكب لمرسى تطوان و آبى أهل أنجرة إلا مواصلة القتال حيث شبت يوم (سادس جمادى الثانية) وقعة كبرى بالفنيدق انتصر فيها المغاربة بفضل أهل أنجرة الذين طلبوا من الخليفة العباس - وكان نازلا بموضع يدعى (المنزلة) قرب الفنيدق - أن يبعث معهم رماة الجبل لأخذ (دار البيضة) فبعث معهم الرماة و ترك معه الجيش وكانت مكيدة منهم - كما يلاحظ السيد أفيلال – ربما ثأرًا من أهل تطوان لما كان بينهم من مجاذبات و لم يبق لدى الخليفة من عدة للدفاع فنزل محلة في (نكَرو) و طلب من أهل تطوان إمداده بالبارود فأبوا و لعلهم لم يكونوا مؤيدين لهذا النوع من التكتيك مما أدى إلى معارضة الشيخ ابن ريسون له حيث كان الخليفة يعمل على الانتقال من مكان إلى مكان فيعمر الأسبان

المكان المفرغ و انتهى الرحيل بالعباس إلى وسط الجبال حيث ينعدم الماء. و كان المتقاعسون عن الجهاد فرارا من الموت (وبهم ابن عودة و باقي القواد) يكتفون بالقول بأن " دين النبي غالب" فانتقل أفيلال عائدا إلى تطوان و الأسبان يواصلون سيرهم حتى وصلوا إلى (واد أسمير) و هنا هاج البحر و غرق مركب للعدو و هرب الجميع و بقي أحد العسكر متقطعا بين واديين فأشاع أن مددهم انقطع فحمل المسلمون السلاح من جديد وكان أفيلال معهم فلما بلغوا المكان المدعو (الطويل) تحقق كذب الإشاعة فاختل نظام الجيش المغربي و في (تاسع عشر جمادى الثانية و عشرين منه) توجه الأسبان إلى تطوان فاعترضهم المسلمون في (دقم الفنيدق) و حاصروهم فلم يثبتوا أمام الأسبان فانهزموا و نزل الأسبان موضعا ترى منه المدينة قبالة جامع (تاسْيَس) فنزلوا من مرسى المضيق وبرج (رأس الطرف) و في الغد بعث الخليفة العباس لأهل تطوان يقول : " انظروا إلى موضع للنزول بحيث لا تلحقني "كورات" العدو " فتجرأ أحد المواطنين على اقتراح النزول في (برج القلالين) إذا كان العباس يود مقابلة العدو و إن كان إنما يود أن لا تلحقه كورة فلينزل في (واد أبي صفيحة) يجعل بينه و بين العدو المدينة و لكنه ضرب أخبيته في برج (القلالين) و انتشرت محلته في البساتين و خرج أهل تطوان للجهاد من(باب المقابر) فلما شاهدوا أعداد النصارى أخذهم الرعب فعادوا من (باب العقلة) من غير قتال و في هذا اليوم أمر عامل المدينة بإخلاء (برج مرتيل) و ترحيل ما فيه من العدة و العتاد و المونة و خرج من كان فيه من الطبجية و الرماة فاحتل الأسبان البرج و نصبوا فيه رايتهم و في (واحد منه) دخلت للمرسى نحو الأربعين مركبا فلم يكن للعباس إلا الثأر من الضعفاء الذين أخرجوا أهلهم من تطوان فسجنهم وعزل (القاضي عزيمان) لإفتائه بإخراج أولاهم من المدينة وتكرست الهزيمة ففر الكثير أمام الأسبان فكان أول الفارين في جبل درسة و آخرهم في القلالين وفي هذا اليوم خرج الشيخ ابن ريسون بأهله و خدامه إلى (تازروت) و ذهب هو لعرصته في (كيتان) و في (خامس رجب) قدمت من فاس محلة من الخيل و الرماة بقيادة مولاي أحمد بن المولى عبد الرحمان فالتقى الفريقان (بواد الشجرة) خارج البساتين فأظهر الأسبان الهزيمة فتبعهم المسلمون فلم يشعروا حتى طلع عليهم عسكر كبير من جهة (مدشر الملالين) فعاد العدو إلى (مرتيل) و لو أراد العدو الدخول إلى تطوان لوجدها فارغة وجاء المجاهدون يطلبون المدد من مولاي أحمد فلم يلتفت إليهم و أقبل على المسمى (الرزيني) يقول له "هل لك جارية طباخة ؟ و كان الأسبان صامدين يطالبون بالصلح بشروطهم القاسية و بدأوا بهدم أجزاء المدينة واقتحامها و كان العباس بتطوان يظن أن الأمر مجرد تهديد فوجه إلى السلطان يقنعه بذلك و كان الخليفة يقول بأن السلطان بعثه للقتال لا للصلح و لكنه استسلم مع ذلك للمصالحة المريرة و خرج من المدينة تاركا إياها نهبا للجيش و كان "المتنصرة" (كما يسميهم أفيلال) يساعدون على فتح الباب على مصراعيه للنصارى و تقتيل المجاهدين.

وهنا بدأ التواطؤ يتواكب بين فرنسا وأسبانيا في (القارة السمراء) و لكن لنا أن نتساءل متى تفتقت أطماع أوربا في إفريقيا و صحرائها ؟ فقد كان عام 1825 (عام قحط لانعدام المحاصيل الزراعية فاضطر المغرب إلى جلب خمسة عشر ألف طن من القموح و تفتح آنذاك عهد جديد من التبادل مع أوربا حيت خرجت المملكة من العزلة التي اضطر إلى القبوع فيها فاغتنمت حاجات أوربا و ارتفاع الأسعار ووفرة المحاصيل عامي 1829 و 1830 فسمح المخزن بتصدير فاضل إنتاجه لتعديل أوضاعه المالية و تحقيق التوازن في ميزانه التجاري و صادف ذلك عهد انبثاق الثورة التقنية بأوربا و النظام الرأسمال ي و طمع الغرب في استغلال موارد إفريقيا لاسيما و قد تفتحت تجارة الأصواف نظرا لمكننة صناعة النسيج و تزايد الطلب في الأسواق الأوربية للمواد الأولية الإفريقية فارتفعت صادرات المغرب إلى فرنسا عام 1831 إلى ثمانية و سبعين في المائة مما كانت تصدره إفريقيا الشمالية إلى فرنسا عام 1836 من

الأصواف فقط و كانت موارد المغرب من الضخامة و الثراء آنذاك مما أدى إلى تقديرات خيالية أكدتها إحصائيات قام بها رحالون غربيون عام 1859 أوصلوا فيها رؤوس قطعان الماشية إلى (48 مليون) عدا بقية السوائم فانضافت إلى زبناء المغرب التقليديين و هم الأسبان والأنجليز و الفرنسيون دول جديدة مثل بلجيكا التي أسست بطنجة قنصلية عامة ووقعت مع المغرب عقدا تجاريا (عام 1839) و أرسلت كل من مملكتي السويد و النرويج بسفارة عام 1837 سبقتها معاهدة سلام و صداقة (عام 1836) بين المغرب والولايات المتحدة الأمريكية و بدأت الصحراء المغربية تجتذب المطامع ففكرت الولايات المتحدة في تأسيس مركز تجاري بجنوب المغرب بالإضافة إلى قاعدة بحرية في إحدى جزيرات المغرب بالمتوسط كما انطلقت كل من أسبانيا و فرنسا في جولات للإطلال على الصحراء و بدأ المغرب يشعر بمدى هذه الأطماع خاصة بعد وفاة المولى محمد بن عبد الرحمان و اعتلاء المولى الحسن الأول على العرش حيث دعا عام 1306 هـ / 1888 (البابا ليون الثالث عشر) للتدخل لدى الأسبان و الفرنسيين لجعل حد لتدخلاتهم في المغرب ومع ذلك أصدرت أسبانيا أمرا ملكيا لإعلان حمايتها في الصحراء (عام 1884) محاولة الضغط على المغرب للتصديق على ما اكتسبته عن طريق القوة مستفسرة السلطان عن مدى و بعد "الحدود الجنوبية للمملكة" فأجاب السلطان يوم رابع رمضان عام 1303 هـ (6 يونيو 1886) مؤكدا مغربية مجموع الصحراء و قد سبقتها رسالة أخرى يوم ثامن عشر مايه إلى ممثلي الدول بطنجة أعقبتها رحلة السلطان إلى الصحراء للتواصل مع شعبه و عمدت أسبانيا إلى التدليس فوضعت خرائط مغلوطة أشرنا إليها في كتابنا حول الصحراء (معلمة الصحراء ص 97) كما نشرت فرنسا بعد ذلك خريطة مزيفة لتضليل الفكر العام و تهييئ الجو لتقليص حدود المغرب و لم تكن هذه الرحلة السلطانية هي الأولى بل كانت شنشنة موصولة حيث سبق للمؤرخ (مارمول)Marmol أن أكد في كتابه "الوصف العام لإفريقيا" (عام 1573م) تنقله شخصيا آنذاك صحبة سلطان المغرب إلى ما يسمى بالساقية الحمراء . وقد قامت (الشركة الجغرافية) في مدريد بعد عام 1885م بجولات للاستيلاء على الأراضي الواقعة بين (رأس بوجدور) و (وادي درعة) و كانت أنجلترا تتربص لأخذ حظها من الغنيمة و إلا عارضتها وقد عارضتها بالفعل حيث صرحت في معاهدة (ثالث مارس 1895) بأن الأراضي المذكورة ملك المغرب و كانت فرنسا تعمل في نفس الوقت لبسط نفوذها على الصحراء الشرقية فانطلقت كوكبة من المهارية منذ (صيف 1315 هـ / 1897) تخترق (تدكلت) و (كوراراة) و(عين صالح) فردت على أعقابها و لكن الفرنسيين احتلوا بسبب التآمر الأوربي (كوراراة) (عام 1318 هـ/ 1900 م) و كانت فرنسا تطمح إلى استكمال السطو على مجموع الصحراء الشرقية التي بقيت معلقة في معاهدة (لالة مغنية) عام 1845 فأمضت مع المغرب اتفاقية يوم عشري يوليوز 1901 في باريس وقعها آنذاك وزير خارجية المغرب عبد الكريم ابن سليمان مع (دلكاسي) Delcasse وزير خارجية فرنسا ثم (بروتوكول) آخر (عام 1320 هـ/ 1902) حددت فيه تفاصيل الاحتلال.

وقد لاحظنا في خصوص تركيز النفوذ الأوربي في القارة صدور معاهدات متناقضة بين الدول طبقا للمصالح الظرفية منها معاهدات تأييد للمغرب مثل المعاهدة الإنجليزية المغربية (عام1273 هـ / 1856) و مثلها معاهدة 1313 هت / 1895 و لكنها ختمت بمعاهدة بين فرنسا و أسبانيا وقعت في باريس بتاريخ 27نونبر 1912/ 1330 هت) تحتفظ فيها كل منهما بنفوذ في الصحراء تعزز بتصريحات إنجليزية (رابع نونبر 1911) مع ألمانيا و بذلك طويت صفحة (حرب أفريقيا) و ما أعقبها من دسائس شارك فيها الغربيون ولا يزالون.